المحاضرة الثامنة أدب مقارن الصف الرابع: د. جاسم الصميدعي

الف ليلة وليلة في الادب الفرنسي:جزء ١

ترجم المستشرق الفرنسي أنطوان جالان (1646–1715) ANTOINE GALLAND لأول مرة في تاريخ أوروبا الأدبي، كتاب "ألف ليلة وليلة" إلى اللغة الفرنسية، مابين 1704و١٧١٧. في اثني عشر مجلداً، ونالت هذه الترجمة نجاحاً باهراً. راجت في كل أنحاء فرنسا، وظلت مدى قرن كامل (القرن الثامن عشر) الترجمة الوحيدة التي عرف بها العالم الغربي "ليالي شهرزاد."

لقد كان من نتائج هذه الترجمة أن أثرت تأثيرات واضحة في الأعمال الفرنسية الكبرى: ملكت أجيالاً كاملة من الأدباء والمفكرين، ولم ينج من سحرها حتى عباقرة التنوير. وأمام الباحث شهادات عديدة تثبت أن حكايات شهرزاد احتلت مكانة الصدارة في المكتبات الفرنسية في القرن الثامن عشر، وأصبحت لا تقل أهمّية عن ملاحم اليونان واللاتين ويكفي إلقاء نظرة سريعة على الموسوعات المتخصصة (بيبليوغرافيا شوفان GHAUVIN مثلاً) للاطلاع على عدد الكتاب والأدباء الذين تأثروا أيّما تأثر بهذه المجموعة القصصية الشعبية. كان كلّ شيء فيها جديداً على القارئ الفرنسي. صورها البراقة التي تظل عالقة في الأذهان، ومغامراتها العجيبة، وأجواؤها الأسطورية الفاتنة، وموضوعاتها الفكرية المتنوعة... وكان هذا الجديد يتخذ لنفسه في كلّ حكاية أشكالاً مختلفة، لا تخلو من عجائب وغرائب...

ويعد فولتير من الفلاسفة الفرنسيين المتأثرين بألف ليلة وليلة في قصصه الفلسفية فلقد استمدّ منها مشاهدها الشرقية، وتجاربها الاستثنائية الرائعة، وكائناتها الغريبة المدهشة، ليقول ما يريد أن يقوله في الفلسفة والسياسة وليعبر عن آمال الإنسانية وآلامها....

1. فلوتير قاصّاً:

فولتير أو فرانسوا ماري أوري (1694–1774)_ (FRANCOIS – MARIE AROUET) هو أستاذ القرن الثامن عشر ورمزه بدون منازع.١– لم يدع حقلاً من حقول النشاط الأدبي والفكري إلاّ وتوغل فيه. وكان . إلى جانب ذلك . جوالة يكثر من رحلاته وأسفاره. اتصل بكبار

أهل العلم والأدب وأقام في قصور العظماء والعباقرة...

ومن المعروف أنّ مؤلفات فولتير تشكّل مكتبة كاملة. فهي تبلغ عدداً يربو على مائتين وستين مؤلفاً. منها الطويل ومنها القصير، فيها الملاحم ٢ –والقصائد٣–، وفيها المآسي والملاهي٤–، والتاريخ والسير٥–، وفيها الرسائل الدينية٦–، والمقالات الفلسفية٧–، وفيها القصص والحكايات، فضلاً عن المئات من الرسائل السياسية والاجتماعية.

ومن المعروف أيضاً، أنَّ فولتير قد اهتمّ بالأدب في وقت مبكّر: لم يبلغ الثانية عشرة من عمره حتى كان ينظم الشعر بسهولة مدهشة، ويكتب الرسائل النثرية بذكاء مفرط. وبعد تخرجه من مدرسة لويس الكبير اليسوعية، كان ملمّاً بجميع المذاهب الدينية واللاهوتية وجميع الأساليب الكلاسيكية الموروثة عن مشاهير الكتاب، فضلاً عن إتقانه اللغتين اليونانية واللاتينية... في الرابعة والعشرين من عمره أخذ يغشى المجتمعات الراقية، ويلتقي بالأدباء والعلماء، وينشر مقالاته ومسرحياته نشراً متلاحقاً: مثلت له مأساة "أوديب "فظفر بالشهرة، وصفق الجميع لـ "سوفوكليس"، ونالت ملحمته "هنري الرابع"، نجاحاً باهراً.. أمّا أثناء إقامته الجبرية في لندن، فلقد تفرّغ للكتابة والتأليف، ودرس اللغة الإنكليزية، وحلل أدب الإنجليز وطباعهم وأخذت تختمر في نفسه أفكار جديدة.... ويبدو أنه قد تأثر تأثراً كبيراً بالحياة الأدبية والفكرية والسياسية الإنجليزية، رأى بعينيه كيف يمكن للإيمان الديني السليم والفلسفة الحرة أن يقوما في غير تشاحن ولا عداء، وشهد التيارات الأدبية والمذاهب الفكرية تختلف وتصطرع بدون أن تولّد العنف....

يبدو أنّ شهرة فولتير الأدبية ترجع إلى جنس أدبي أصاب قدراً كبيراً من الذيوع في القرن الثامن عشر لقربه إلى نفس الجمهور الفرنسي الذي كان يطمح إلى تحقيق العدالة الاجتماعية... هذا الجنس الأدبي هو القصة الفلسفية التي تدور أحداثها في بيئة شرقية، والتي كانت عند فولتير وسيلة للتعبير عن نقده وبث آرائه في السياسة والمجتمع.

وفي الحقيقة، إنّ فولتير لم يعن، في بداية حياته الأدبية، بالفنّ القصصي، وإنّما اكتفى بتأليف المسرحيات والملاحم ونظم الشعر والأناشيد.٩–، ولم يحتفل بالقصة إلاّ بعد أن جاوز الخمسين من عمره (أي بعد عام ١٧٤٧). ينشرها، في أغلب الأحيان بأسماء مستعارة، ففي قصري

(سيري) و(سو) اللذين قضى فيهما أسعد أوقاته، ١٠-، بدأ اهتمامه بهذا الجنس الأدبي. وفي صحبة حبيبته دي شاتلي أنتج أهم قصصه التي ساهمت في بناء مجده الأدبي: زديج أو القدر (1748)، ميكروميجا (١٧٢٥) سكر منتادو(١٧٥٦.(

كتب فولتير مابين ١٧٤٧ و١٧٧٠ أكثر من عشرين قصة، والعجيب في الأمر أنّ هذه النصوص الخيالية، البهيجة، الصغيرة الحجم، اليسيرة الحمل، كانت أوسع انتشاراً من جميع مؤلفاته الأخرى. ولقد تجلى فولتير فيها . مابين الخمسين والسبعين من عمره . فناناً قديراً وفيلسوفاً متمرداً، لاسيما وهو يمزج الواقع الفرنسي الأليم بمغامرات أبطاله، وتأملاته الفلسفية بالأهوال والمخاطر.

ويبدو جلياً أنّ القالب الأدبي الذي صادف حظوة لدى فولتير في قصصه، هو قالب الرحلة المقرونة بترجمة حياة بطل من الأبطال. فهو يقصّ حياة هذا البطل، في نزهة عبر العالم: ضروب من الخطف والمتابعة، والسحر، ومن جغرافيا خيالية، وأرواح، وحيوانات غريبة وطلاسم، وأمور تهمّ عصره الحاضر، وأخرى مصدرها الإغراب، في أسلوب ماجن ساخر، محلى بالملح اللاذعة، وبالعبارات الحرة من كلّ قيد، وبالفصول القصار، وبالعنوانات الحادة...

والقصة، عند فولتير، لم تكن غاية تطلب لذاتها، وإنّما وسيلة يبتغيها المفكّر، ليصل بها إلى غرض من الأغراض الفلسفية، سواء أكان هذا الغرض متصلاً بما وراء الطبيعة أو بالنظام الاجتماعي، أو السياسي أو الديني، فكّان يشعل النار في كل الأعداء، من عقائد وأشخاص. يضعهم في الخيال الطيّع المصوّر، كما في "زديج"، و"أميرة بابل" (١٧٦٨)، وأحياناً يتتبّع غاية ثابتة، ويقصد إلى البرهنة على فكرة أو إلى تفنيدها، كما في "ميكرو ميجا"، و"جانو وكولان" (١٧٥٦).....-

وما دامت القصة، عند فولتير، وسيلة، وليست غاية، فمن الطبيعي أن يكون الأشخاص الذين تجري على أيديهم الأحداث وسائل لا غايات. فإذا عرض فولتير على القارئ شخصاً من الأشخاص الذين يعملون، أو يتأثرون في قصصه، فالذي يعنيه هو ما يصدر عن هذا الشخص من قول أو عمل، وما يلمّ بهذا الشخص من حدث أو خطب، ومايكون لهذه الأقوال والأعمال

والأحداث من أثر في حياة الناس...

ولئن أعطى فولتير أهمية قصوى للأفكار والمعاني، فإنّه لم يهمل الخيال الذي يعد عنصراً أساسياً من عناصر الفنّ القصصي (وهذه خصلة من الخصال التي تميّز بها). فهو لايأخذ من الواقع سوى مايخدم هدفه، كما أنّه لا يحفل بالزمان ولا المكان، ولا يحفل أحياناً بالمنطق، ولا يبالي بالجغرافيا والتاريخ :أميرة بابل . مثلاً . تعيش في أقدم العصور الإنسانية، قبل أن يوجد التاريخ، وهي . مع ذلك . تتخذ للتنقل وسائل، منها ما يلائم الأساطير، ومنها ما يلائم العصر الذي كان فولتير يعيش فيه، وهي تزور مدناً لم تنشأ إلاّ في عصور متأخرة، وتشهد أناساً بدائيين، أما البطل كانديد فيطوف هذا العالم العجيب، ويتعرض لشتى المصائب والمحن، ويخلص منها بكلّ ما أوتي من فطنة، خالطاً الهزل بالجدّ، والمغامرات بالحكمة. نراه ينتقل من أمريكا إلى تركيا ومن إيطاليا إلى الجزائر بسرعة فائقة مذهلة، ويشاهد مدناً خيالية وأناساً لا يختلفون عن المجانين.

II. فلوتير والشرق.

1. موقف فولتير من الشرق.

علق فولتير، في قصصه ومسرحياته، أهمية كبرى على العنصر الشرقي، مما دفع بعض النقاد إلى اعتبار قلبه يميل نحو الشرق. ولقد اعترف هو نفسه أنه مدين لهذا "الشرق العظيم"، الذي علمه دروساً في الفلسفة والحكمة، وزوّده بكلّ الأساليب والوسائل التي سمحت له أن ينظر إلى العالم المحيط به بنزاهة وموضوعية.-

لقد كان هذا الأديب معجباً . فعلاً . بالشرق فهو لم يكف، في كتاباته المختلفة، من الإشادة بحضارته وتاريخه وشعوبه: خصّص له مجالاً واسعاً في موسوعته "مقالات في العادات " Essai sur Les moeurs 14-. وتحدّث عنه بإسهاب في مؤلفه "عصر لويس الرابع عشر"، "LeSiecle de Louis XIV"واستلهم منه كل مايخدم أفكاره ورموزه ومشاهده في مسرحياته وقصصه الرائعة.-١٥

والشرق، عند فولتير، أداة لنقد السياسة والمجتمع. ووسيلة لمقارنة بين حضارتين مختلفتين، عالم بناه ليعبئ فيه آماله في التطوّر والازدهار، فهو لم يعن به إلى هذه الدرجة إلاّ ليخدم برنامجه الفلسفي . الإصلاحي الذي طالما عمل على بثه وإذاعته في الأوساط الشعبية. نجده يختفي وراء المشاهد الشرقية

والكائنات الغريبة، والأسفار الطويلة والتجارب الاستثنائية، ليعبر بكلّ حرية عن أفكاره وتأملاته، وليجسد مايريد أن يقوله لقرائه في صور حية رائعة.

في الحقيقة، لقد بذل فولتير جهداً كبيراً للنظر إلى الشرق نظرة أكثر تحرّراً وأقلّ تحيّزاً ممّا جرت عليه العادة في القرون السابقة. فقصصه ومسرحياته تخلو من التلفيقات والتشويهات المتوارثة (في الغرب) للتاريخ والمعتقدات الشرقية... نجده في قصة "زديج أو القدر"، يتغنى بالفارس العربي وبنبله وكرمه وحبه العفيف..... وفي مسرحياته "زايبر" . التي تدور أحداثها في الشام . يدافع عن المسلمين الذين ظلمهم التاريخ المسيحي، مبرزاً بصدق خصائص الفروسية العربية وأهمية الوفاء عند العرب... وفي "عشاء الكونت بولنفيي" ١٧- يبرز وجه الإسلام المشرق وينوه بالدور الذي قام به محمد (ص (على الصعيد العالمي، يقول:

"إنّ أقلّ مايقال عن محمد (ص) أنه قد جاء بكتاب وجاهد... أمّا عيسى (عليه السلام) فلم يترك شيئاً مكتوباً ولم يدافع عن نفسه... لقد امتلك محمد (ص (شجاعة الإسكندر وحكمة (نوما ((NUMA)؛ أمّا عيسى فقد نزف دماً بمجرّد أن أدانه قضاته.والإسلام لم يتغير قطّ، أمّا أنتم ورجال دينكم فقد غيرتم دينكم عشرين مرّة".